

السيائية

المنطق اللغوى الجديد

ما يبعث على الحيرة والتأمل أننا نجد فى اللغة العربية مئات الكلمات الاغريقية التى اتخذت مكانة صميمة حتى لا نكاد نتبين أصلها الأجنبى . وظنى أن دولة قديم ، دولة زينب أو الزباء ، هى الأصل لهذا التغفل الاغريقى فى لغتنا ؛ لأنها كانت دولة عربية إغريقية .

ونحن نستعمل فى مصر كلمتين : إحداهما تلبس اللباس العربى الصميم وهى سيم أو سيماء ، حتى لنقول عليه سيم الوقار وكأننا نطق كلاماً عربياً فصيحاً . والمعنى هنا علامة الوقار . ونستعمل كلمة أخرى تلبس اللباس الأجنبى الصريح فنقول السيففور للنصب العالى الذى ينتهى بعلامة للقطرات على السكك الحديدية ، والمعنى هو حامل العلامة .

والمعاجم العربية تقول السيماء هى العلامة ، وكذلك تقول المعاجم الاغريقية . فالأصل إغريقى لا شك فى ذلك .

وقد ظهر علم جديد فى أوروبا يسمى السيائية أى علم العلامات ، وهو علم الكلمات أى العلامات للمعاني من حيث دقة مدلولها المنطقى أو الاجتماعى أو من حيث تطور المعنى ، وما يعتور كل هذا من اضطراب المعنى أو سداده . وكان ميشيل بريال اللغوى الفرنسى أول من تنبه إلى هذا الموضوع وألف فيه قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، وهو الذى اشتق الاسم .

وأول ما نلتفت إليه فى هذا الموضوع ونسلم به أن لكل كلمة مناخاً نشأت وعاشت فيه ؛ لأن معناها كان مألوفاً فى مجتمع معين يحتاج إلى هذا المعنى ويطلبه فى وسائل عيشه وعاداته الاجتماعية . فاذا تغير هذا المجتمع فان معنى الكلمة يضطرب ؛ لأن الحاجات القديمة التى كان يطلبها المجتمع القديم من

هذه الكلمة لم يعد المجتمع الجديد يحس بها ؛ فتحدث من ذلك التباسات واضطرابات لغوية لا تؤدي إلى الفهم الصحيح . وهذا هو ما يحدث عند ما نقرأ كتاباً قديماً في اللغة العربية مضى على تأليفه ألف سنة أو نحو ذلك . فاننا نجد المؤلف مثلاً يستحسن نكتة أدبية لا نرى مغزاها ؛ لأننا بعد ألف سنة قد فقدنا الجوَّ الأدبي الذي كان يحيط بهذه النكتة . أو نجد كلمات غريبة أو فلسفية يشق علينا فهمها . ومن هنا كانت الصعوبة في قراءة ابن رشد أو الفارابي ؛ فان كلا منهما يعالج مشكلات كانت تتصل بمجتمعيهما . وقد زال هذا المجتمع في أغلبه ؛ ففقدنا نحن أواصر الصلة بيننا وبين معانيه . بل إننا حين نقرأ ديوان شعر للبحتري أو أبي تمام نجد من معاني المديح مثلاً ما لا يثير في نفوسنا حماساً أو إعجاباً ؛ لأن المعاني القديمة قد زالت بزوال المجتمع القديم . فاختلقت القيم والأوزان للمديح والثناء باختلاف المجتمعين . ولكن هذه الاشكالات يسيرة في جنب ما نرث من كلمات تضطر إلى استعمالها لأننا لا نجد غيرها ؛ مع أنها من حيث بيئتها الأولى كانت تعني أشياء لم تعد قائمة في مجتمعنا . وكل جيل مضطر إلى أن يستعمل الكلمات التي كان يستعملها الجيل السابق مع ما قد يكون بين الجيلين من اختلاف اجتماعي أو اقتصادي يحتاج إلى معان جديدة . ثم تسوء الحال أكثر وأكثر عند ما يضطر جيل يعيش مثلاً في بيئة صناعية متحركة بالآلات الانتاج إلى استعمال كلمات نشأت قبل ألف عام في بيئة زراعية جامدة .

اعتبر الكلمات التي نعبر بها عن العلاقات بين المالكين الزراعيين وحقوقهم وواجباتهم من حيث البيع والشراء والإيجار والحدود والحقوق الارتفاقية والعينية والاشتراك في المحصول ونحو ذلك ، ثم انقل هذه الكلمات للتعبير عن العلاقات بين المالكين المساهمين في شركة ؛ فانك واجد أن الحقوق والواجبات قد اختلفت ، وأن كثيراً من المعاني القديمة لم يعد يألف مع هذا النظام التساهمي . وكذلك الشأن عند ما ننقل من مزرعة إلى مصنع عصري ؛ فاننا كثيراً ما نتخدع بالكلمات ، فنأخذ تلك الكلمات التي ألفناها في المزرعة عن الادخار والتوفير والاجتهاد ، ونحن نأمل الامتلاك بهذه الفضائل أو التوسع فيما نملك بزيادة في المساحة أو زيادة في ترقية الانتاج ، ثم ننقل هذه المعاني إلى المصنع ، وننقل مع هذه المعاني عواطف قد أحدثتها

لنا هذه الكلمات بالتربية السابقة ، ثم لا نجد ما يلائمها في البيئة المصنعية الجديدة .

وكل كلمة تحمل معنى . وهذا المعنى هو بمثابة العادة الذهنية التي تلابسنا طوال حياتنا ما دام هذا المعنى قائماً . وعلى أنه قد يزول أحياناً المجتمع الذي أحدث هذا المعنى واستعمل كلمته ، ولكن العادة الذهنية تبقى وكأنها عاطفة لها قوة لتحريك الفرد أو المجتمع إما للخير وإما للشر ، بل تبقى الكلمة وتحيا حياة ضعيفة برواسب قديمة من معناها السابق .

فمنذ ١٩١٩ نهضت المرأة في مصر وسفوت وعملت طالبة في المدرسة أو الجامعة واشتغلت في المصالح والمصانع . وهذه حال اجتماعية تناقض بلا شك المجتمع القديم الذي سبق ١٩١٩ . ولكن الكلمات الباقية من المجتمع القديم لا تزال حية ، وهي تحط المرأة وتفكر استقلالها وحريتها ومساواتها بالرجل . وهي لذلك توقعنا في اضطرابات وارتباكات ذهنية خطيرة . ولست في حاجة إلى ذكر هذه الكلمات لأنها كثيرة مستفيضة .

ومن هنا نفهم أن شيئاً كثيراً من صعوبات الفهم والتفاهم ليس ذهنيًا وإنما هو لغوي . أي إن هذه الصعوبات لا تعود إلى ذهن ضعيف ينقصه الفهم ، وإنما تعود إلى كلمات سيئة قد خرجت من بيئتها القديمة ودخلت في بيئة جديدة . وهذا هو ما نحس عند ما نعجز عن فهم الفارابي أو ابن رشد . وهذا هو ما نحس عند ما نتحدث المناقشة بيننا بشأن المرأة وهل يحق لها أن تستحم على الشواطئ أم لا ؛ بل هذا هو ما يحدث عند ما نمارس حرية معينة في الصحافة أو الخطابة أو العمل في مجتمع جديد نص دستوره على هذه الحريات جميعاً ، ولكنه استبقى كلمات الاستبداد السابقة وما رافقها من عواطف في قهر الشعب والتسلط عليه وضرورة إرغامه على الخضوع .

ومن هنا أيضاً نفهم أن الكلمات قد تزيد الذكاء أو تنقصه . أو بتعبير أصح نقول إنها قد تحدد الذكاء أو تبلّده . وهي ، أي الكلمات ، قد تكون سبباً للجريمة أو سبباً للمرض .

هناك كلمات تثير العقل الراكد وتنبيه الذكاء الخامد ، مثل كلمات المروءة ، الشرف ، المجد ، الاستقامة ، الحق ، العدل . فان البليد الذي انحصرت

آفاقه يتنبه بهذه الكلمات وتتسع آفاقه بها . وهو ينتقل بها من شؤونه الحرفية المحدودة إلى شؤون إنسانية عالية . وهو يرتفع بها من ذاته الشخصية الأنانية إلى الذات الاجتماعية العامة . وهناك كلمات أخرى تبذل الذهن وتسفل به إلى درجة الحيوانية ؛ كما نجد في كلمة شماتة ، أو كما نجد في الكلمات الجنسية السفلى التي يتنادر بها العامة . فان معاني هذه الكلمات تحدث عواطف تلابسها . ثم هذه العواطف تعين طرازاً سيئاً من السلوك الجنسي بين الزوج وزوجته خاصة وبين الرجل والمرأة عامة .

وهناك كلمات تبعث على الجريمة ؛ كما نجد في الكلمات عرض ودم وفار . عند القرويين والبدو في جرجا وقتنا ؛ فان هذه الكلمات تثير في الصبيان قبل الشبان خيال الجريمة ثم عاطفة الجريمة . وما تجب ملاحظته أن هذه الكلمات الثلاث مع ما لكل منها من جو لغوى قديم لا يمكن أن تترجم إلى اللغة الإنجليزية . وقد يقال هنا إن هذه الكلمات تعبر عن معان قائمة في نفوس القرويين والبدو في جرجا وقتنا ، وأن هذه الكلمات نتيجة ، سبب ، لهذه الكلمات . ولو أننا سلمنا بهذا القول لوجب أن نسلم بأن القرويين والبدو في جرجا وقتنا يختلفون بطبيعتهم وغرائزهم عن الانجليز أو عن سكان المنصورة أو طنطا . إنما الحقيقة أن هذه الجرائم هي نتيجة لهذه الكلمات الفاشية في هاتين المديرتين . وهي كلمات تتذبذب بأنغام عاطفية مثيرة ، وهي تعين طرازاً من السلوك يلزم الحياة . بل هناك كلمات تبعث على المرض . ونعني المرض النفسى . فأننا نعبّر مثلاً عن سن النضج والابتناع في المرأة ، حين تشرع في الارتفاع من الانثوية إلى الانسانية ، بسن اليأس . واليأس هنا كلمة تبعث على القلق والتقليل ، وهي جذيرة باحداث المرض . كما أن كلمات المزاجة الاقتصادية : هذا ثرى ، هذا مالك ، هذا وجيه ، وهذا فقير ، مسكين ، معدم سبب الحظ - كل هذه الكلمات تبعث عواطف كرهية من الحسد والبغض ونحوهما مما يحدث أمراضاً نفسية تبدأ بالهم والقلق وقد تنتهى بالجنون.

لكن أعظم ما يحدث لنا اضطراب الفهم وارتباك المعاني أن الكلمات التي نستعملها إما أن تكون موضوعية لها حقيقة ووجود خارج أنفسنا ، وإما أن تكون ذاتية ليس لها حقيقة أو وجود إلا في أنفسنا . ونحن نتفق بسهولة على

الكلمات الموضوعية ؛ إذ ليس منا من يختلف على المعاني من هذه الكلمات التالية : حيوان ، نبات ، إنسان ، أرض ، هواء الخ .

ولكننا نختلف كثيراً على المعاني التي تؤديها الكلمات الذاتية ، مثل جميل ،

قيبح ، سافل ، عظيم ، عالم ، مثقف ، فاضل الخ .

واللغة ، وكذلك الفهم ، يرقيان بالانتقال من المعنى الذاتى المضطرب إلى

المعنى الموضوعى الدقيق ، كما يحدث مثلاً عند ما أقول : هذا الرجل ثرى ، فإن

الثراء هنا كلمة ذاتية تختلف كلنا على معناها . فإن الفلاح الأجير يعتقد أن الثراء

هو امتلاك بقرة وحمار ونحو عشرة جنهيات فاجزة . والعامل الأجير فى مصنع

يعتقد أن الثراء هو امتلاك أتمويل . ولذلك كانت كلمة ثرى هنا كلمة مضطربة ،

كلمة ذاتية . ولكنى أستطيع أن أنقل هذه الذاتية إلى الموضوعية بأن أقول : هذا

الرجل يملك عشرة آلاف جنيه بسعر القطع ثلاثة دولارات لكل جنيه .

ومن هنا نفهم أن الأرقام تنقلنا من الذاتية إلى الموضوعية . وهى لذلك

لغة العلم أى اللغة الدقيقة التى يحتاج إليها العلم . ولكل منا خارطة نفسية

للعالم الذى يرسم لنا بصورة ذاتية تلابسها عواطف مختلفة . وإنما يفضل

أحدنا الآخر بمقدار ما ينقل هذه الصورة من الذاتية إلى الموضوعية ، أى من

العاطفة إلى الوجدان والتعقل .

كذلك اللغات تتفاضل بمقدار اعتمادها على كلمات موضوعية دقيقة أو

كلمات ذاتية مضطربة . ولذلك نجد رجلاً مثل واطسون داعية السيكولوجية

السلوكية يقاطع هذه الكلمات : عقل ، نفس ، غريزة ، وجدان ، كامنة ،

لأنه يجد أنها كلمات ذاتية . وهو يحاول أن ينتقل منها إلى كلمات موضوعية

تؤدى بالأرقام على قدر الامكان .

قد شرحنا إلى هنا مرمى هذا العلم الجديد : السيائية . وهو أن نقف

على أخطاء التفكير التى تبعها أخطاء التعبير باستعمال كلمات فقدت مناخها

الاجتماعى الذى نشأت فيه ، أو باستعمال كلمات سيئة تبعث على الجريمة ، أو

باستعمال كلمات ذاتية تضطرب بها المعانى .

الكلمات علامات . والسيافور هو حامل العلامة الذى يوجه القطرات

بالاشارات أو الايماءات .

والسيائية التطبيقية هي التي تدلنا على اختيار العلامات ، الكلمات ، التي نرشد بها ونوجه ، بحيث نزيد الذكاء حدة ، ونرفع العاطفة ، ونعين الأهداف . ولا تكون منطقيين فقط بل سيكولوجيين أيضاً نحاول أن نختار من الكلمات مايجب الأفكار كما يجب القفاز اليد ، فلا تكون الكلمة مرجحة لها حواش وأذنان من المعاني .

وهذا بالطبع ليس مجهود الفرد فقط سواء أكان من رجال الأدب أم من رجال العلم ، ولكنه مجهود القرون . ونحن بهذا المجهود نتقل من البلاغة القروية التي تعلمناها ، إلى البلاغة السيائية التي يجب أن ندرسها ونمارسها في مجتمع القرن العشرين .

قبل نحو ستين سنة أخرج ماكس مولر اللغوى العظيم كتاباً صغيراً قال فيه : إننا لانستطيع أن نفكر بلا كلمات أو على الأقل إيماءات كما يفعل الأخرس . والكلمة إيماءة أو علامة . وقد أثار هذا الكتاب مناقشات وقتئذ كان مدارها على التفكير هل هو ثمرة الكلمات أم الكلمات ثمرة التفكير . وقد بقيت هذه المشكلة بعيدة عن الحل الحاسم إلى أن جاء واطسون داعية المذهب السلوكى فى السيكلوجية . وهو مذهب ينتهى إلى أن التفكير إنما هو كلمات غير منطوقة أو حديث صامت . أى إن التفكير لايجرى إلا مع حركات صائنة أو صامتة فى عضلات الحنجرة . وإننا بدون هذه الحركات لانستطيع أن نفكر . وهنا يستطيع القارىء أن يتأمل موقفه العاطفى من السرور أو الخوف ، وأن يسأل : هل نحن نسرّ لأننا نضحك أى نحرك عضلات الصدر أم نحن نضحك لأننا نسرّ ؟ وهل نحن نفرّ لأننا نخاف أو نخاف لأننا نفرّ ؟ وهل كنا نخاف لو أننا لم نفرّ ؟ وأخيراً هل نحن نفكر لأننا نتكلم بصوت مجهور أو مهموس أم العكس هو الذى يحدث أى إننا نتكلم لأننا نفكر ؟

الظن الأكبر ، وما زلنا فى مقام الظن ، أن جميع عواطفنا تحتاج إلى حركات فى أعضاء الجسم الداخلية أو الخارجية . ولما كان كل تفكير مهما برى فى ظاهره يحتاج إلى عاطفة تبعث عليه وتحرك له بعض الأعضاء ، فاننا لانستطيع التفكير بدون الكلمات . وإذن يجب أن نستنتج أن ما نحسبه تفكيراً صامتاً إنما هو فى صميمه كلمات مهموسة لانسمعها . وما يدل على هذا أننا عند ما

نفكر في موضوع يثير العاطفة نجد أننا نتكلم وقد يرتفع صوتنا حتى نسمعه .
وإذن يجب أيضاً أن ننتهي إلى القول بأن التفكير السديد يحتاج إلى
كلمات سديدة ، كلمات تحبك المعنى كما يحبك القفاز اليد لا تضيق ولا تتسع
ولا تطول ولا تقصر . وإذن كل إهمال للكلمات إنما هو إهمال للتفكير . وكل
تجديد في التفكير يحتاج إلى تجديد في الكلمات . وأيضاً كل تجديد في اللغة هو
تجديد للتفكير .

الحركة السيائية هي ثمرة الروح العلمى . فان البيئة الصناعية الجديدة
احتاجت إلى العلوم واستغلتها كي تزيد إنتاجها ، وأخذ الروح العلمى يطغى على
التفكير البشرى في مراتبه العالية ويعين قواعد ويرتب أصولاً للدقة في البحث .
ولما وجد العلميون أن التراث اللغوى يحفل بكلمات مرجحة مسببة غير مقيدة
بمحدود محبوكة ، عمدوا إلى اللغتين الاغريقية واللاتينية لسك كلمات جديدة تؤدي
المعاني العلمية الدقيقة .

وهنا يثب القارىء سائلاً : ألسنت الآن تعترف بأنهم ، أى العلميين ، قد
فكروا ثم اختاروا وسكوا الكلمات التى تؤدي المعانى ؟ ألا يثبت هذا القول
أن المعنى قد سبق الكلمة ؟

ولكن الاجابة على هذا السؤال هى سؤال آخر هو : ما الذى أرشدهم
إلى المعنى الجديد سوى الكلمات القديمة التى فكروا فيها ثم وجدوها غير وافية
بتفكيرهم ؟

وهذا الروح العلمى هو الذى يبعث المفكرين على بحث الكلمات من
حيث قيمها وأوزانها المنطقية والاجتماعية والسيكلوجية حتى نستطيع استخدامها
في التفكير السليم وفى التوجيه الاجتماعى والمعالجة السيكلوجية .

وعبارة « التوجيه الاجتماعى » تحملنا على ذكر الدعاية والشأن العظيم
الذى كان لها فى جميع الأمم المتحاربة فى الحرب الكبرى الماضية . فان الدعاية هى
فى النهاية استخدام القوة الاغرائية التى للكلمات . وهنا مكان جديد للبلاغة
السيائية ، وإن لم يكن أسمى أمكنها ، ستعنى به الحكومات .

ويجب أن يعرف القارىء أولاً أننا بهذا الذى قلناه عن السيائية إنما قد
خدشنا السطح فقط ولم نتمق الموضوع . والموضوع فى صميمه سيكلوجى غايته

الفهم السليم . أو قل الفهم الموضوعى . ويجب أن يعرف القارئ ثانياً أن لكل لغة سيائيتها ، كما أن لكل لغة نحوها الذى يتميز من النحوى أية لغة أخرى . ذلك أن كل لغة قد نشأت وشبت وترعرعت وأحياناً شاخت فى مناخ معين لم تعش فيه أية لغة أخرى . وهذا المناخ طبيعى واجتماعى . وهو بهذه المثابة قد أحدث كلمات وعين أسلوباً للكلام هو فى النهاية أسلوب للتفكير . ثم هذا الأسلوب فى التفكير قد عين طرازاً للأخلاق والعيش ، إما للخير وإما للشر . وليس من الشطط أن نقول إن الصينيين مثلاً رجعيون لأنهم يتكلمون اللغة الصينية ، كلمات ورثوها منذ ألفى سنة تحمل معانى رجعية وتعين سلوكاً رجعياً فى الحياة . كما أن الفرنسيين مثلاً عصريون لأنهم يتكلمون اللغة الفرنسية ، كلمات جددوها تحمل معانى عصرية وتعين سلوكاً عصرياً فى الحياة . وقس على هذا لغتنا ولغات الأمم الأخرى .

سلام موسى